رسالة المفاخرة بين « مالقة » و « سلا»
للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ)

◄ علاء الدين زكي

تمثّل رسالة المفاخرة بين «مالقة» و«سلا» للسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ) أحد نماذج النثر الأندلسي، وهو: رسالة المفاخرة بين «مالقة» و«سلا «، الأولى ميناء أندلسي، والثانية ميناء مغربي، للسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، أحد أبرز أعلام الأندلس العلماء، والقامة الشامخة زمن حكم بني الأحمر، آخر ملوك الأندلس.

جاءت الدراسة مقسّمة إلى مدخل، ومبحثين اثنين، تحدثت في المدخل عن المحطات البارزة في حياة لسان الدين بن الخطيب، مركزاً على ثقافته ومؤلفاته، ثم تحدثت في المبحث الأول عن بواعث تأليف هذه الرسالة، ودرست الموضوعات التي كانت محاور المفاخرة بين «مالقة» و«سلا»، كما أرادها لسان الدين بن الخطيب نفسه، معتمداً في دراستي هذه على استقراء النص ذاته، ودراسته دراسة نقدية داخلية. وفي المبحث الثاني تناولت الرسالة من منظور النقد الفني، فوضحت أثر الموروث الديني والفكري في نثر لسان الدين، وأتيت على وصف مجمل لأهم السمات الفنية في هذه الرسالة، التي هي بطبيعة الحال نموذج أصيل، وجزء لا ينبت عن نثر لسان الدين بن الخطيب بمجمله. وفي نهاية الدراسة أوردت خاتمة بأهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

والصعوبة الوحيدة التي عانيت منها في هذا الدراسة، هي رداءة التحقيق المتوافر لهذه الرسالة الفنية، إذ إنه كثير الخطأ في الرسم الإملائي، والتشكيل، وأحياناً في التركيب كله، مما استدعى أن أرجّح ما يتوافق وروح النص المدروس، بحيث أثبت الصواب في متن الرسالة، ثم أشير إلى الخطأ في الحاشية، وأنبه عليه.

قبس من حياة لسان الدين بن الخطيب (713-776هـ)

أولاً: اسمه ونسبه وموجز حياته(1)

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، ولد بمدينة لوشة سنة 713هـ،

◄ مدّرس في جامعة الزيتونة.

وينتسب إلى قبيلة عربية تدعى سلمان، وتعرف بالأندلس ببني الوزير، وهي قبيلة مشهورة استوطنت أول أمرها مدينة قرطبة، واشتهر رجالها بالفقه والأدب والعلم، ثم رحلت إلى طليطلة، ومنها إلى إشبيلية، وأخيراً استقر سعيد السلماني الجد الأعلى للسان الدين في بلدة لوشة فخطب بها، وتلقب بالخطيب بسببها، واستمر هذا اللقب في أسرته من بعده.

كانت نشأة لسان الدين مترفة، هانئة، ففي حجر السلطنة نشأ وفي ظلها رضع، وكان لوالده أكبر الأثر في حياته السياسية وحظوته عند السلاطين.

لم تزدد شهرة لسان الدين ولم يتوسع نفوذه، ويسطع نجمه إلا بعد وفاة شيخه أبي الحسن بن الجياب، حيث علا شأنه، وارتفعت منزلته، فقد حل محله برئاسة الكتاب، أخريات سنة 749هـ فاستبد بالسطلة، واستأثر بهوى السلطان وحظوته، إذ أصبح السفير والوزير، والنائب عن السلطان أبي الحجاج يوسف الأول سنة 755هـ، ثم عن ولده من بعده محمد الخامس.

ولم ينغص على لسان الدين حياته الهانئة تلك، إلا الثورة على سلطانه محمد الخامس سنة 760هـ، حيث قبض عليه، وصودرت أملاكه، وضيق على أهله وخاصته. وظل يرسف في أغلال السجن حتى جاءته الشفاعة من سلطان المغرب، فلحق بسلطانه الذي فر إلا وادي آش، وغادر برفقته إلى عدوة المغرب سنة 761هـ.

وقد شكلت هذه الحادثة منعطفا خطيرا في حياته، فبعد أن عاش السياسة، وخبر أدوائها، وجمع بسببها الأموال آثر تركها، والانفصال عن الخدمة، لينقطع للعبادة. وفي عدوة المغرب أقام لسان الدين في مدينة سلا، عزيز الجانب، موفور الرزق، آمناً مطمئناً.

وفي أثناء إقامته في مدينة سلا هزه مصاب كبير، حيث ألقى الحمام برحله في فناء داره، وأخذ زوجه منه سنة 762هـ، فاشتد كمده عليها، ورثاها بشعر مؤثر، ينضح حزناً وألماً.

وحسن عزم محمد الخامس على العودة إلى الأندلس طلبا لملكه، فآثر لسان الدين البقاء في المغرب وطلب الإعفاء من الخدمة، متعللاً بمحاولته الانصراف إلى بيت الله، لأداء فريضة الحج، إلا أنه لم يسعفه إلى ذلك، بل أقنعه بأن مؤازرته أبر وأبقى، ولما ألح عليه لسان الدين أعطاه عهداً مكتوباً بألا يمسكه أكثر من عامين.

بعد أن استعاد محمد الخامس ملكه، لحق به لسان الدين، وأصدر له ظهيراً أعاده إلى سابق عهده، فاستبد بالسلطة، واستولى على هوى السلطان، وألقيت مقاليد الحكم بين يديه. وبسبب هذا التعاظم في السلطة، والتحكم بمصائر الدولة، أصبح لسان الدين هدفاً لسهام الحسد والغيرة، من بطانة السلطان الذين تكالبوا عليه، وتفننوا في السعاية فيه، وعلى رأس هؤلاء قاضي الحضرة أبو الحسن النباهي(2)، وتلميذ ابن الخطيب وصنيعته أبو عبد الله بن زمرك(3)، وهما من أشد خصومه وأعدائه، ومن أشد الذين سعوا إلى الخلاص منه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد.

استشعر لسان الدين بهذه السعايات، فأعمل الحيلة للاستعفاء من الخدمة، كي ينجو من أحابيل أعدائه، ولما لم يسعفه السلطان في طلبه، اتصل بسلطان المغرب، وأخذ منه عهداً بخط يده يسمح له بالعبور إليه وإيوائه، وبعد أن تحصل له ذلك تعلل في تفقد الثغور، فلما وصل جبل الفتح جاز إلى سبتة، ونزل بها سنة 733هـ فتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة والتجلة.

وعندئذ خلا الجو لحساد لسان الدين، فأوسعوه ذماً وقدحاً، ولجوا في كيل الاتهامات له، فعدوه آثماً لمفارقته أرض الجهاد في الوقت التي هي أحوج ما تكون إليه، والأكثر خطورة من ذلك أنهم نسبوا إليه كلمات تخرجه من ربق الإسلام، فاتهموه بالزندقة، وأحرقوا كتبه.

بعد ذلك توالت الرسل من الأندلس إلى المغرب تطلب تسليم لسان الدين، أسفرت في النهاية عن اعتقاله وإيداعه السجن، بأمر من سلطان المغرب أبي العباس أحمد بن أبي سالم الذي استولى على العرش سنة 776هـ.

وقد أجريت محاكمة صورية للسان الدين، ثم أفتى بعض الفقهاء الحاقدين عليه – ظلماً وزورا – بوجوب قتله، ودس عليه بعض الأوغاد، وبعض من جاء من الأندلس، فطوقوا عليه السجن ليلاً، وقتلوه خنقاً سنة 776هـ.

وكان لسان الدين يستشعر دنو أجله، وقرب وفاته وهو يرسف بأغلاله في سجنه، فكان أن رثى نفسه بمقطوعة مؤثرة، قال فيها :

بعدنـا وإن جاورتنا البيــوت وجئنــا بوعظ ونحن صمـــوت
وأنفاسنـــا ســكنت دفعـــة كجهـر الصـلاة تلاه القنـــوت
وكنا عظاما فصرنا عظامــا وكنا نقوت فها نحن قــــوت
وكنـــا شموس سماء العـــلا غربنا فناحت علينا السمـــوت
فكم جدلت ذا الحسام الظبا وذو البخت كم جدلته البخوت
وكـــم سيق للقبر في خرقــة فتى ملئت من كساه التخـــوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفـــات ومن ذا الذي لا يفوت
فمـــن كان يفرح منهم لـــه فقل : يفرح اليوم من لايمـوت

وتجدر الإشارة إلى أن لسان الدين لقب بمجموعة ألقاب عرف بها، كان أشهرها وأسيرها «لسان الدين»، ومنها «ذو الوزارتين» أي وزارة السيف ووزارة القلم، ومنها أيضا «ذو العمرين» بسبب إصابته بداء الأرق، فلا يستطيع النوم ليلاً، فيعمر ليله بالكتابة والتأليف، مما أضاف إليه عمراً آخر.

ولقب بـ «ذي الميتتين» و«ذي القبرين» بعد وفاته، فبعد أن قتل خنقاً في سجنه ليلاً، أخرج من قبره، وأوقد حوله الحطب، فاسودت بشرته، وأعيد إلى حفرته ثانية.

ثانياً: ثقافته ومؤلفاته:

نشاء لسان الدين في جو موسوم بالعلم والمعرفة والأدب، إذ كانت غرناطة من أكثر الحواضر الإسلامية اعتناء بالدراسات الأدبية والعلمية، وقد ترك هذا الجو أثراً واضحاً في تشكيل شخصيته الثقافية والمعرفية، مع ما توافر لديه من موهبة واستعداد فطري وتعطش للعلم والمعرفة.

كان أول شيء تعلمه القرآن الكريم، ومن ثم ولج إلى العلوم الأخرى، حتى اتسمت ثقافته باتساعها وترامي أطرافها، فلا يوجد شيء –غالباً– في المعارف والعلوم والآداب إلا وله فيه مشاركة نافعة، حتى أصبح إحدى الظواهر التي انماز بها القرن الثامن الهجري.

كما كان لشيوخه انعكاس كبير في سعة علمه وتنوع معارفه، إذ تتلمذ على كوكبة من الشيوخ ذوي الشأن والمعرفة ممن بعد شأوه، وذاع صيته، واختلف إلى مجالسة الكثير من طلبة العلم في الأندلس(4).

وكان لسان الدين شاعراً مجيداً، وصل إلينا من شعره ديوان «الصيب والجهام والماضي والكهام» وهو مطبوع، ونال شهرة في موشحاته وأزجاله، يقول المقري عن لسان الدين

في هذا الشأن: «وأما موشحاته وأزجاله فكثيرة، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن»(5)، كما كان كاتباً كبيراً، طار صيته بأدبه، وقد وصفه ابن خلدون بأنه «آية من آيات الله في النظم والنثر»(6).

وهو مكثر في تآليفه، منوع في نتاجه، حتى يبدو «أن الثقافة الأندلسية من أولها في الأندلس إلى آخرها، قد سقيت وتقطرت في لسان الدين بن الخطيب، لتعدد مانحيه، وسعة علمه، وكثرة نتاجه»(7).

ومن مؤلفاته المطبوعة –على سبيل المثال لا الحصر–: «الإحاطه في أخبار غرناطة» و«الإشارة إلى أدب الوزارة» و «أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تليها الزواجر والعظات» و«كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» و«جيش التوشيح» و«روضة التعريف بالحب الشريف» و«ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» و«الكتيبة الكامنة فيمن لقاينه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة» و«السحر والشعر» و«معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» و«نفاضة الجراب في علالة الاغترب» وغيرها من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة(8).

وسوف أتوقف في هذه الدراسة النقدية عند إحدى رسائله، التي تمثل نموذجا لنثره الفني، وهي تحمل عنوان: رسالة المفاخرة بين «مالقة» و«سلا»، أبدأ بالدراسة الموضوعية، ثم الدراسة الفنية.

رسالة المفاخرة بين «مالقة » و«سلا» (9) الدراسة الموضوعية:

في تراثنا العربي كثير من المؤلفات التي اختصت بـ«الفضائل»، سواء أكانت فضائل الأشخاص أم فضائل البلدان، «وكان التأليف من فضائل الأشخاص قد سبق التأليف في فضائل البلدان. وكلا الأمرين من بدع الفكر الإسلامي وكان يقابلهما في الجاهلية، التحدث بأمجاد القبائل وأيامها ومفاخرها.

والذي يهمنا الكلام عليه هنا هو فضائل البلدان، وقد ظهر التأليف فيها في القرن الثالث الهجري –ثم استمر في سائر القرون من بعد– وكانت المدن التي ألف في فضائلها تلك التي أوتيت منافسة مع مدن أخرى، كالبصرة والكوفة، ومكة والمدينة، ودمشق وبغداد، أو دمشق والقاهرة ، والأندلس وبر العدوة أو المغرب الأقصى. وقد دفع إلى التأليف في فضائل البلدان عوامل كثيرة، يرجع أهمها إلى أسباب سياسية، أو عصبية»(10).

أولاً: بواعث تأليف الرسالة:

يرجع الدكتور محمد مسعود جبران تأليف هذه الرسالة إلى أحد باعثين: الأول ما ذكره لسان الدين نفسه في بداية هذه الرسالة، من أنه كتبها تلبية واستجابة لطلب أحد أصدقائه وعارفيه الذي لم يسمه، واكتفى بذكر ما طلب منه في عقد هذه المقارنة بين المدينة الأندلسية التابعة لغرناطة (مالقة)، والمرموز بها إلى وطنه ، وبين المدينة المغربية (سلا) التي اتخذها دارا لمهجره، يقول في مفتتح الرسالة: «سألتني عرفك الله عوارف السعد المقيم، وحملني وإياك على الصراط المستقيم، المفاضلة بين مدينتي مالقة وسلا، صان الله من بهما من النسم، وحباهما من فضله بأوفر القسم ، بعد أن رضيت بحكمي قاضيا، (وبفصلي) الخطة سيفاً ماضياً، لاختصاصي بسكنى البدلين، وتركي فيهما الأثر للعين»(11).

ونتسائل هنا «هل كان هذا الطالب أو السائل أو المشير على ابن الخطيب بالكتابة في هذا الغرض صديقاً أندلسياً أو صديقاً مغربياً له؟ أو أنه كان شخصاً متخيلاً جرده خياله لينشئ على ضوء طلبه هذه المفاخره؟»(12).

والباعث الثاني نفساني انفعالي ناجم عن حياة كاتب الرسالة وظروفه النفسية القلقة المتوترة في الحقبة التي كتب فيها رسالته، وقد قال بهذا الباعث وأكده الفقيه ابن على السلوي الدكالي في منظومته التي ألفها في الرد على هذه الرسالة، والتي أسماها إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط و«سلا»(13) فقد ألمح في أبيات أرجوزته المطولة هذه إلى أن لسان الدين كان واقعاً تحت هذا التأثير النفساني الانفعالي حينما اتخذ مدينة سلا مستقراً ومهجراً، وحينما تحاماه فيها بعض أعيان المدينة، ولم يقوموا بزيارته أو استزارته.

فالفقيه ابن علي السلوي يرى أن هذه الرسالة في المفاضلة بين مالقة وسلا «قول أعمى» جره إليه الوضع النفسي المأزوم الذي كان ابن الخطيب متأثراً به من تنكر المتنكريين له من أهل سلا وأعيانها، وعدم إكرامهم وفادته، وهو ما ذهب إليه الدكتور محمد مسعود جبران(14).

أما الدكتور حسين مؤنس فيقول إننا لا ندري السبب الذي حفز لسان الدين على إنشاء هذه الرسالة، فلسان الدين يقول في مستهلها أن واحداً من أصحابه سأله أن يقوم بهذه المفاضلة، فاستجاب لما طلب إلي، ولكن الأغلب أن هذه تعلة لما رمى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب في صورة مفاخرة بين ميناءين: أندلسي هو مقالة ومغربي هو سلا، فالرسالة في حقيقتها ليست مفاضلة وإنما هي تعظيم مبالغ فيه لمالقة، وحملة تخلو من الذوق على سلا، وهي مدينة طالما آوت لسان الدين وأحسنت إليه، ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب –وغير المغرب– من البلاد ، وخاصة في العصور المتأخرة ، فهم يزهون عليها جميعا، ولا يرون أن في الدنيا كلها ما يعدل بلدهم، وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيدوه بالتفاني وبذل الأرواح، ولو فعلوا لنجت غرناطة قطعاً من الهلاك!(15).

ويرى الدكتور أحمد مختار العبادي أنه من العجيب أننا نلاحظ أن لسان الدين رغم حبه لبلاد المغرب ولمدينة سلا بالذات، التي لجأ إليها في أوقات محنته، يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات، ويتحيز إلى المدينة الغرناطية مالقة، فيجعلها المفضلة على طول الخط. «وقد يرجع هذا الشعور إلى روح المنافسة التقليدية القديمة التي كانت سائدة بين الأندلسيين والمغاربة، والتي تظهر بوضوح في رسالة الشقندي قبل قرن من الزمان»(16).

والذي أراه – بعد أن قمت بدراسة هذه الرسالة، وما كتب عنها مما حصلته ووقع بيت يدي– أنه ليس مقبولاً أن يكون الباعث لكتابة هذه الرسالة هو تلبية طلب أحد أصدقائه، لأن الموضوعية في إصدار الحكم غائبة عن هذا النص تماماً، والتحيز باد في كل محاور المفاخرة إلى مالقة، وقد سلب كل فضائل سلا وتنكر لها باستثناء بضع عبارات مقتضبة، فالباعث هو الانتصار لبلده ومسقط رأسه الأندلس على العدوة المغربية، انتقاماً أدبياً من أهل تلك البلد، الذين قصروا في وفادته، يضاف إلى ذلك إظهار مقدرته البلاغية واللغوية، وهذا ما سنتبينه في الدراسة الفنية لهذه الرسالة.

ثانياً: الدراسة الموضوعية للرسالة:

نجد لسان الدين من بداية الرسالة متعصباً محتداً لوطنه الأثير لديه، والذي أهمل معه كل ميزة لغيره، خاصة سلا تلك المدينة التي آوته زمناً من حياته، قال: «على أن التفضيل إنما يقع بين ما تشابه وتقارب.. أو تشاكل وتناسب، وإلا فمتى يقع التفضيل بين الناس والنسناس، والملك والخناس، وقرد الجبال، وظبي الكناس. مالقة، أرفع قدراً، وأشهر ذكراً، وأجل شأناً، وأعز مكاناً، وأكرم ناساً، وأبعد التماساً، من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض أو تصاول، أو تراجع أو تعادل، ولكني

سأنتهي إلى غرضك، وأبين ربع معترضك، وأباين جوهرك وعرضك»(17).

وبهذا نجد لسان الدين قرر قبل البداية في المفاخرة أن يميل بالميزان ناحية مالقة، وهذا في ذاته يقتضي التقليل من شأن سلا، والنتيجة أن المقارنة غير سلمية من أول الأمر، وقد كنا نتوقع على الأقل ألا يكون هذا مبلغ الحساسية الفنية عند لسان الدين، لأن «المقارنة بين الجيد جداً والسيئ جداً لا تستقيم، وتلوين اللوحات بالألوان المتعارضة المتناقضة ليس من شأن الفنان الأصيل ، وليست هذه ملاحظة على فن ابن الخطيب، بقدر ما هي استلفات للذهن إلى المبالغة الظاهرة في كلامه»(18).

ويمكن حصر مظاهر المفاخرة بين مدينتي مالقة وسلا، بهذين المستويين:

أ: المستوى الطبيعي، بما تحويه كل مدينة من مناخ وسهول وجبال وأدوية ورمال وأمواه.

ب: المستوى الحضاري، بما تحويه كل مدينة من بناء وعمارة، وحصون وأسوار، ومنعة عسكرية، ومآكل ومشارب، وغير ذلك. وقد يتداخل المستويان في بعض فصول المفاخرة، بعامل الإعادة والتكرار، وهذا يعد خطأ موضوعياً ومنهجياً، أثر على بنائية الرسالة، ومضامينها(19).

وقد عبر لسان الدين عن هذا بأسلوبه حيث قال: «فنقول: الأمور التي تتفاضل بها البلدان، وتتفاخر منها به الإخوان، وتعرفه حتى الولائد والولدان، هي المنعة، والصنعة، والبقعة، والشنعة ، والمساكن، والحضارة، والعمارة، والإثارة، والنضارة»(20).

ويعد لسان الدين بقوله هذا أول من يضع قانونا للمفاخرة بين البلدان، يتضمن الأمور التي تقوم المفاخرة بها، «ولم يظهر بعد ابن الخطيب من ابتدع أسساً جديدة تقوم عليها فضائل البلدان»(21).

وقد اتبع في نسق هذه المفاخرة طريقة ملتزمة في ذكر المفاضلة، يبتدئ فيها عادة بذكر مالقة، وما لها من المحاسن في كل مستوى من ذينيك المستويين، ثم يتبع ذلك بذكر سلا وقصورها عن بلوغ ما لمالقة من المفاخر.

ومثال ذلك قوله في المنعة – وهي من الأمور التي تجمع المستويين الطبيعي والحضاري، كما أنها أول ما بدأ به المقارنة بين هاتين المدينتين-: «فأما المنعة فلمالقة حرسها الله فضل الارتفاع، ومزية الامتناع، أما مقبثها(22) فاعتقدت الجبل المبارك كرسياً، ورفعها الله مكاناً علياً، بعد أن ضوعفت أسوارها وأقوارها(23)، وسما بسنام الجبل المبارك منارها، وقرت أبراجها، وصوعدت أدراجها، وحصنت أبوبابها، وحسن جنابها، ودار ببلدها السور والجسور، والخندق المحفور، فلقهرّاتها(24) مداين بذاتها، وأبوابها المغشاة بالصفايح شاهدة بمهارة بناتها، وهمم أمرائها وولاتها، وكأنها لبست الصباح سربالاً، أو غاصت في النهر الفلق بهاء وجمالاً، أمنت من جبهة البحر التقية، وأدار بها من جهة البر الحفير والسلوقية، لا تجد العين بها عورة تتقى ولا ثلما منه يرتقى إلى الربضين(25)، اللذين كل واحد منهما مدينة حافلة، و(عقيلة)(26) في حلى المحاسن رافلة»(27).

ثم ينتقل إلى سلا، ويذكر نقائض تلك المحاسن التي اشتملت عليها مالقة، يقول: «وسلا– كما علمت– سور حقير، و(قور)(28) إلى التنجيد والتشييد فقير، إطام(29) خاملة، وللروم آملة(30)، وقصبتها بالبلد متصلة، ومن دعوى الحصانة منتقلة، سورها مفرد لا سلوقية(31) نقية، وبابها

تقصد لا ساتر تحميه، والماء بها معدوم، وليس له جب معلوم، ولا بير بالعذوبة موسوم، وفي عهد قريب استباحتها الروم في اليوم الشامس، ولم ترد يد لامس، من غير منجنيق نصب، ولا تاج ملك عليه عصب، قلة سلاح، وعدم فلاح، وخمول سور، واختلال أمور»(32).

نلمح في أوصافه الأخيرة في هذه الفقرة (وفي عهد قريب استباحتها الروم في اليوم الشامس... واختلال أمور) شدة سخريته من سلا، وتهكمه على أهلها، فقد عنى من قوله ذاك أنها استسلمت دون أدنى مقاومة، فلم يحتج الأعداء إلى أن ينصبوا المنجنيقات، فهي عديمة الفلاح، خاملة، مختلة! وعلى هذه الطريقة يسير في مفاخرته بين المدينتين، في كل من المستويين.

أ- المستوى الطبيعي في المفاخرة:

تحدث لسان الدين في هذا المستوى عن مقدرات المدينتين الطبيعية، من أهواء، وأمواه، وجبال، ورمال، وسهول، وبحار، ووديان إلى غير ذلك، مركزاً على الفروق الطبيعية التي تعلي شأن مالقة، وتحط من شأن سلا، نحو قوله: «فلنرجع إلى مزية البقعة فنقول: خص الله مالقة بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها، إذ جمعت بين دمث(33) الرمال، وخصب الجبال، و(قامرة)(34) الفلاحة المخصوصة بالاعتدال، والبحر القديم الصّداع(35)، الميسرة مراسيه للحط والإقلاع ، والصيد العميم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسهلها قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين، ومزارعها المغلة عند استبداد السنين، وكفى بفحص (قامره)(36) صادع بالبرهان المبين، ووديها الكبير عذب فرات، وأدواح (مثمرات)(37)، وميدان ارتكاض بين بحر ورياض»(38).

وفي المقابل، نجد سلا عنده جرداء، لا تشتمل على شيء مما اشتملت عليه مالقة من المحاسن، يقول عنها: «وسلا، بلد (الرمال)(39)، ومراعي الجمال، بطيحة لا تنجب السنابل، وإن عرفت المطر الوابل، جرد الخارج، وبحرها مكفوف المدارج، ووديها ملح المذاق، مستمد من الأجاج الزلاق، قاطع بالرفاق من الآفاق، إلى بعد الإنفاق، وتوقع الإغراق، وشابلها(40) مقصور على فصل، (وكم لشوكة من شبا نصل) (41)، عديمة الفاكهة، والمتنزهات النابهة»(42).

وفي موضع آخر من الرسالة يؤكد على خلو سلا من المحاسن الطبيعية فيقول عنها: «بلد منخرق منقطع متفرق، ثلثه مقبرة خالية، وثلث خرب بالية»(43).

وفي معرض حديثة عن النضارة، التي يقصد بها «الحسن السابي الذي يأسر الرائي»(44)، نجده يقول عن مالقة: «وأما النضارة، فمن ادعى أنه ليس في الأرض مدينة أخطر منها جناناً، ولا أغزر منها غروساً وأعناباً، ولا آرج أزهاراً، ولا أضوأ أنهاراً، لم تكذب دعواه، ولا أزرى به هواه، إنما هي كلها روض، وجابية وحوض، بساتين قد رقمتها الأنهار، وترنمت بها الأطيار»(45).

وأما سلا فيسلبها النضارة، لأنها بلد «عديم الظلال، أجرد التلال، إذا ذهب زمن الربيع، والخصب المريع، صار هشيماً، وأضحى ماؤه حميماً، وانقلب الفصل عذاباً أليماً»(46).

ب - المستوى الحضاري في المفاخرة:

يتضمن هذا المستوى العديد من المظاهر الحضارية في القرن الثامن الهجري، مثل هيبة الدولة التي عبر عنها بـ «الإمارة» وانتشار التجارة والصناعة، والعناية بإثارة الأرض والغراسة، والاهتمام بناء العمائر والقصور والدور والحصون

والأسوار ورعاية الجند والجيوش والأمن، وما يتبع ذلك من لين الحياة في المطعوم والمشروب، وهذا كله نجده جلياً في مالقة، التي يعني بها الأندلس، بينما تفتقر إليه سلا، التي يعني بها المغرب.

فقد ذكر في هيبة الدولة التي سماها الإمارة، وخص بها مالقة: «القدح المعلى(47)، والتاج المحلى، وهي على كل حال بالفضل أولى»(48).

وذكر في الصناعة والتجارة، أن مالقة «حرسها الله طراز الديباج المذهب، ومعادن صنايع الجلد المنتخب، والمذهب الفخار، المجلوب منها إلى الأقطار، ومقتصر المتاع المشدود(49)، ومضرب الدّست المضروب، و(صنعا)(50) صنايع الثياب، ومحج التجار إلى الإياب لإفعام العباب، بشهادة الحس، والجن والإنس، ولا ينكر طلوع الشمس»(51).

وفي المقابل ذلك يقدم لنا سلا بقوله: «وأي صناعة في سلا، يقصد إليها ويعول عليها، أو يطرف بها قطر بعيد، أو يتجمل بها في عيد»(52).

أما الاهتمام ببناء العمائر والقصور والدور والحصون والأسوار، فقد توسع في ذلك، وأشار إلى تاريخ مالقة العمراني، بمقابل قلة هذه الحضرة العمرانيه في سلا، يقول في ذلك: «أما المساكن فحسبك ما بمالقة من قصور بيض، وملك طويل عريض، جنة السيد(53)، وما أدريك بها من جنة دانية القطوف، سامية السقوف، ظاهرة المزية والشفوف، إلى غيرها مما يشذ عن الحصر إلى هذا العصر، والجنات التي ملأت السهل والجبل، وتجاوزت الأمل... وأما سلا وإن كان بها للملك دور وقصور، ولأهل الخدمة بنا مستور، فهو قليل وليس للجمهور إليه سبيل. وأما المساكن بمالقة بين راض قيد الحياة، ومنتقل من جناتها إلى روضات الجنات، فأكبر به أن يفاضل، أو يجادل به أو يناضل، ولا شاهد، كالصلات(54) الباقية المكتتبة، والتواريخ المقررة المرتبة»(55).

ونجده في معرض الاستدلال على ما يذهب إليه من فضل مافلة، ورفعو شأنها، يستشهد بالمصادر التاريخية، ويحيل إليها، وفي ذلك يقول: « فاستشهد مغرب البيان، وتاريخ ابن حيان، وتاريخ الزمان، وكتاب ابن الفرضي، وابن بشكوال، وصلة ابن الزبير القاضي، ومن اشتملت عليه من الرجال، وصلة ابن الأبار، وتاريخ ابن عسكر وما فيه من الأخبار، وبادر بالإماطة عن وجه الإحاطة، ترى الأعلام سامية، وأدواح الفضلاء نامية، وأفراد الرجال، يضيق بهم رحب المجال»(56).

ثم يعرج على سلا مشفقاً قائلاً: «وسلا المسكينة لا ترجو لعشرتها إلا ابن عشرتها، مهملة الذكر والإشادة، عاطلة من حلي تلك السيادة، وإن كان بها (أهل عبادة)(57)، وسالكي سبيل زيادة، فكم بمالقة من ولي، وذي مكان علي، ومن طنجالي وساحلي، وهذه لا تدفع، ودلايل انكارها لا ينفع، فمن شا فليوثر الإنصاف بالإنصاف، ومن شا فليوثر الخلاف وسجايا الأخلاف»(58).

وذكر في معرض رعاية الجند والجيوش وما تنعم به مالقة من الأمن حديثاً مفصلاً، جعل عنوانه «الشنعة» وهو مصطلح غريب أراد به معنى «الفظاعة التي تخيف الطامعين وتدخل الرعب في أعداء الملة والدين»(59) قال: «مالقة دار ملك في الروم، ومثوى المصاعب والقروم(60)، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم، وذات ملك في الإسلام عديد الجيوش، خافق الأعلام، غني بالشهرة عن الإعلام، سكنها ملوك الأدارسة(61) الكرام، والصناهجة(62) الأعلام، ثم بنو نصر(63)، أنصار الإسلام، وجيشها اليوم مشهور الإقدام، متعدد (المئين)(64)

على مر الأيام، وتجارها تعقد لواء خافقاً، وتقيم للجهاد سوقاً نافقاً، وتركض الخيول السائحة، وتعامل الله على الصفقة الرابحة، وكفاها أنها أم للعدة من الحصون والثغور، والمدن ذات الحمى المصون، وشجرة الفروع الكثيرة والغصون، وما منها إلا معقل سام، وبلد بالخيل والرجال مترام، و(غيد حام) (65)، يحتوي بها ملك (باذخ)(66)، وينسق فيها للسلطان فخر باذخ. وأين سلا من هذه الميزة، والشنعة العلية، أين الجنود والبنود والحصون تزور منها الوفود، وإن كان بعض الملوك ذهب إلى اتخاذها داراً، واستبطانها من أجل الأندلس قراراً، فلقد هم وما أتم، وطلبه تم»(67).

ثم يتحدث عن مظاهر الحضارة في مجتمع مالقة، فيقول، «ولنقل في الحضارة بمقتضى الشواهد المختارة، ولا كالحلى والطيب، والحلل الديباجية والجلابيب، والبساتين ذات المرأى العجيب، والقصور المبتناة بسفوح الجبال، والجنات الوارفة الظلال، والبرك الناطقة بالعذب الزلال، والملابس المختالة في أفنان الجمال، والأعراس الدالة على سعة الأحوال، والشروات المقدرة بالآلاف من الأموال»(68).

وفي المقابل يقول عن سلا: «وأما سلا، فأحوال رقيقة، وثياب في غالب الأمر خليقة، وذمم منحطة فقيرة»(69).

وقد جاءت خاتمة الرسالة لتؤكد ما بدأت بع من إقرار ظهور مالقة على سلا، بتلك المحاسن الأندلسية التي تتمتع بها، لكنه يذكر فضل سلا، ويقدمها على فضل بعض المدائن المغربية، لا على مالقة بأي حال من الأحوال، يقول في ذلك: «وفصل الخطة أن لمالقة الميزة بجلالها وكمالها، وحسن أشكالها، ووفور مالها، وتهدل ظلالها، وشهرة رجالها، وطرق صنايعها وأعمالها، ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظيرها من بلاد المغرب وأشكالها... وعنا نلقي عصا التسيار، ونفض من عنان الإكثار، وحسبنا الله ونعم الوكيل»(70).

وفي معرض البحث نجد أن لسان الدين يثني على سلا في مواضيع أخر من مؤلفاته، على النحو الذي نجده في كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، إذ يقول عن سلا: «العقيلة المفضلة، والبطيحة المخضلة، والقاعدة المؤصلة والسدرة المفصلة، ذات الوسامة والنضارة... الخ»(71).

ولعله يكون بذلك قد رد لهذه المدينة ذات الفضل عليه شيئاً من الحق والاعتبار، ويبقى التأويل مفتوحاً أمام هذا التناقض في إصدار الحكم عند لسان الدين، ولعل مرد ذلك يعود إلى «التملق والتزلف ، رغبة –من لسان الدين– في رفد سلاطين المغرب وحظوتهم، فقد كتب كتابه معيار الاختيار أثناء وجوده في المغرب، تحت كنف سلاطينها»(72).

وخلاصة القول في هذه المفاخرة غير العادلة، أنها نبعت عن هوى وتعصب، وميل لطرف على حساب الطرف الآخر، فهي من الناحية الموضوعية لا تصلح شاهداً أو دليلاً على أفضلية هذه المدينة على تلك، ولا نستطيع بعدها أن نحكم بتقدم مالقة وتأخر سلا، لكننا نستطيع أن نصدر حكما على أسلوب لسان الدين بن الخطيب، وهذا ما نسعى إليه في المبحث التالي من هذا البحث.

رسالة لمفاخرة بين «مالقة» و«سلا « الدراسة الفنية :

أولاً: الموروث الديني والفكري:

كان لسان الدين يميل إلى توظيف ثقافته العريضة والشاملة، التي تزخر بشتى أنواع المعرفة والعلوم، في بناء نصه النثري، سواء أكان ذلك الموروث دينياً، أم فكرياً. وهو في ذلك التوظيف يختار ما يتوافق وأغراضه ومراميه، وما يؤديه من وظيفة جمالية فنية في النص، حتى يبدو من حسن انسجامه مع النص جزءاً رئيساً منه، وليس مجلوباً إليه، ومدرجاً في ثناياه.

ومن الأمثلة على ذلك في هذه الرسالة، اقتباسه من القرآن الكريم، «وقد تقوم الآية المستشهد بها في بلوغ الغرض، وتوفية المقاصد، ما لا تقوم به الكتب المطولة»(73)، ولعل من أسباب وجود هذه الخاصية في نثر لسان الدين، نشأته العلمية الأولى، وتعلمه القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، مما طبع طريقة تفكيره بطابعه الخاص.

ولم تأت الآيات الكريمة في نثره من أجل تزيين النص وتحليته فحسب، وإنما هي تعزز النص، وتعطيه قوة تأثير أكبر، فعندما يصف مدينة مالقة بأنها «اقتعدت الجل كرسياً، ورفعها الله مكانا عليا»(74)، فهو ينظر إلى قوله تعالى في حق نبيه إدريس عليه السلام: «ورفعناه مكاناً علياً»(75)، وواضح هنا أنه أتى بهذه الآية لتأكيد الفكرة، وتثبيت المعنى، لزيادة التأثير في نفس المتلقي، وبالتالي الانتصار لمدينة مالقة، وإعزاز شأنها ومكانتها.

ومن الغريب هنا ادعاء لسان الدين أنه يريد الإنصاف، وإثبات الحق في هذه المفاخرة، وأنه لن يميل إلى طرف على حساب طرف، فهو يقول مخاطباً من طلب منه المفاضلة بين مالقة وسلا: «سألتني عرفك الله عوارف السعد المقيم، وحملني وإياك على الصراط المستقيم»(76)، وجلي هنا أنه ينظر إلى قوله تعالى في فاتحة الكتاب: «اهدنا الصراط المستقيم»(77)، وكأنه أراد بذلك دفع تهمة الانحياز عن نفسه منذ البداية، فهو لم يقصد إلا إقرار الحق، ونسبة الفضل إلى أهله!

ونجده في موطن آخر يحل الآية الكريمة، ويعيد صياغتها، فلا يكتفي باقتباسها، لما في ذلك من حرية التصرف، ومن مراعاة الاندفاق الشعوري والإيقاعي في النص، وكأن المتفنن يشعر أنه لو أعاد تشكيل الآية الكريمة، وفق النص الذي يبدعه، فإن ذلك سيؤدي إلى تحصيل أثر أكبر في نفس المتلقي، ومثال ذلك قوله واصفا مالقة: «جنة السيد، وما أدريك بها من جنة دانية القطوف، سامية السقوف»(78)، وهذا إعادة صياغه لقوله تعالى في حق المؤمن أنه: «في جنة عالية× قطوفها دانية»(79)، فهو قد لجأ إلى التحوير وإعادة الترتيب، كي تتوافق الكلمات وتدفق النص، بإيقاعه وموسيقاه.

ويلحظ الدارس لنثر لسان الدين أنه كثيراً ما يلح على الإشارات التاريخية(80)، وهذا نجده عند الحديث عن مالقة، فقد «سكنها ملوك الأدارسة(81) الكرام، والصهانجة(82) الأعلام، ثم بنو نصر(83)، أنصار الإسلام»(84)، ويتصل بذلك استشهاده بالمؤلفات التاريخية ذات الصلة بالفخر بمالقة وتاريخها، كما جاء في قوله: «فاستشهد مغرب البيان، وتاريخ ابن حيان، وتاريخ الزمان، وكتاب ابن الفرضي، وابن بشكوال، وصلة ابن الزبير القاضي، ومن اشتملت عليه من الرجال، وصلة ابن الأبار، وتاريخ ابن عسكر وما فيه من الأخبار، وبادر بالإماطة عن وجه الإحاطة، ترى الأعلام سامية، وأدواح الفضلاء نامية، وأفراد الرجال، يضيق بهم رحب المجال «(85). ولعل ذلك نابع من ثقافته الموسوعية الشاملة، فقد وظف التاريخ في المعنى الذي يقصده، والرأي الذي يريد الانتصار إليه.

ويتصل بهذا الشأن ورود بعض ألفاظ في الرسالة، تفسح المجال أمام المزيد من الطباق والتضاد، نحو قوله ملبياً دعوة من اقترح عليه إنشاء هذه المفاخرة: «ولكني سأنتهي إلى غرضك، وأبين رفع مفترضك، وأباين جوهرك وعرضك»(86)، والشاهد هنا قوله «جوهرك وعرضك» فهذه ألفاظ مستقاة من علم المنطق والفلسفة، وهي إحدى آثار علم الكلام، وهي في النهاية تتفق وروح النص، القائم على المفارقة، والمطابقة.

ثانياً: السمات الفنية:

أولى هذه السمات الفنية، تتمثل في الحديث عن أسلوب لسان الدين في هذه الرسالة، أو طريقته في التعبير عن آرائه، ومراميه، ومن الواضح أن أسلوبه جاء مسجوعاً، وهذا الأسلوب المسجوع يطغى على نثر لسان الدين، حتى أصبح يعرف به، «فما أن يذكر لسان الدين الأديب إلا ويقترن اسمه به، فكأنهما صنوان لا يفترقان، ويبدو أنه لم ينسج على غيره من الأساليب»(87).

فمن ذلك قوله: «وفصل الخطة أن لمالقة المزية، بجلالها وكمالها، وحسن أشكالها، ووفور مالها، وتهدل ظلالها، وشهرة رجالها»(88)، ففي هذا النص نجد قصر العبارة، واعتدالها، وتناغم سجعتها، وما تولده هذه الأشياء من إيقاع داخلي، وجو موسيقي عذب تأنس النفس إليه.

ومن وجوه السجع التي تأتي بعد منزلة الاعتدال عنده، أن يكون الفصل الثاني أطل من الفصل الأول(89)، ومن ذلك قوله واصفاً مالقة: «كالحلي والطيب، والحلل والديباجية والجلابيب، والبساتين ذات المرأى العجيب»(90).

وفي هذا النص اجتمع ملحظان لطيفان، أولهما موضع الاستشهاد، فقد جاء الفصل الثاني، أطول من الفصل الأول، في كل سجعة، طولاً لم يخرج به عن الاعتدال كثيراً، وثانيهما التسلسل المنطقي في بناء الجملة، فقد تكونت الجملة الأولى من لفظتين، وتبعتها الثانية من ثلاثة ألفاظ، والجملة التي تليها من أربعة ألفاظ.

وهذا الأمر يعطي النص بعدا جمالياً عالياً، ويدل على مقدرة فنية خصبة، وهو ضرب يحتاج إلى كد وإعمال عقل، ولو أنه يبدو سهلاً، لا يحيتاج إلى كبير تكلف وتصنع.

ووجه آخر من السجع نجده عند لسان الدين في هذه الرسالة، وهو أن يكون الفصل الأخير أقصر من الفصل الأول، وقد عابه ابن الأثير بقوله: «وهو عندي عيب فاحش»(91)، ولكنه ورد عند لسان الدين، وكأنني به لم يابه لمن عابه وانتقص منه، ومن ذلك قوله في وصف سلا: «وسلا بلد عديم الظلال، أجرد التلال، إذا ذهب زمن الربيع الخصب المريع، صار هشيماً، وأضحى ماؤه عميماً، وانقلب الفصل عذاباً أليماً»(92).

فقد جاء بطول الفصل الأول عن الثاني في بداية النص، ومن خلال قافيتي اللام والعين، وجاء بقصر الفصل الأول عن الثاني في نهايته من خلال قافية الميم. وبهذا يكون لسان الدين في هذه الرسالة قد لون في استخدام السجع، الاعتدال، وإطالة الجزء الأخير، وإطالة الجزء الأول، وفي هذا من المقدره على التصرف في فنون القول، وتطويع الكلم، ما فيه من إبداع وإعمال عقل!

ومن السمات الفنية لهذه الرسالة ، اعتمادها على الطباق أجل إتمام المعنى، فهذه الثنائيات المتضادة في بنية الرسالة، جاءت لتخدم المقصد منها بشكل لا يبدو منفراً، أو شاذاً، أو مقحماً على النص دون مزيد بيان، فمن ذلك قوله في مفتتح الرسالة، نافياً أن يكون هناك وجه للمقارنة أصلاً بين مالقة وسلا: «وإلا فمتى يقع التفضيل بين الناس والنسناس، والملك والخناس، وقرد الجبال، وظبي الكناس»(93).

وجلي هنا أنه يوظف الطباق في خدمة المعنى المراد، فقد طابق بين الأسماء: الناس و(النسناس) أي القرد، والملك و(الخناس) أي الشيطان، وقرد الجبال، وظبي الكناس (وهو بيت الظبي). وما هذا الطباق إلا صورة للمفارقة والبون الشاسع ما بين مالقة وسلا، وأنه لا تعقد مقارنة بينهما أصلاً، ولكن لسان الدين قارن بينهما استجابة لطلب صديقه لا

غيرا إذن، جاء الطباق هنا متوافق موضوعياً وفنياً مع غرض الرسالة، وشكل زينة للنص، وحسّن موقعه في النفس، لما يحمله من دلالات ومضامين فكرية، منسجمة ومتناغمة.

أما الجناس، فهو من أكثر المحسنات اللفظيه شيوعاً في هذه الرسالة خاصة، وفي أدب لسان الدين عامة، نحو قوله: «ولكني سأنتهي إلى غرضك، وأبين مغترضك، وأباين جوهرك من عرضك، فنقول الأمور التي تتفاضل بها البلدان، وتتفاخر منها به الإخوان، وتعرفه حتى الولائد والولدان، هي المنعة والصنعة والبقعة والشنعة....»(94).

وجلي هنا الجناس الاشتقاقي في الأفعال نحو (أبين/ أباين، تتفاضل/ تتفاخر) وفي التراكيب نحو (غرضك/ مغترضك/ عرضك) وفي الأسماء نحو (الولائد/ الولدان، المنعة/ الصنعة، البقعة/ الشنعة) ولعل الجناس هو الذي دفع بلسان الدين إلى استخدام هذه اللفظة الغريبة (الشنعة)، وهذا دليل على أنه إنما يقصد الجناس قصداً، ويتعمده، ويسعى إليه، ويتكلف في سبيله الألفاظ الغريبة.

وهو في عمله ذاك ينشد مستوى صوتياً معيناً، يشيع في النص جرساً موسيقياً عذباً لذيذاً، وهو أيضاً يمثل أسلوب الإنشاء في زمنه، والضوابط التي تعارف عليها الأدباء، حتى يسمى ما يقدمونه فناً أدبياً، وهو في الحقيقة إنما ينسج على منوال القاضي الفاضل، وعلى وقع خطاه يسير(95).

وفي هذه الرسالة، لا نجد الألفاظ لمعانيها خادمة دائماً، فقد يطنب الكاتب، ويفصل القول ثم لا ترجى فائدة حقيقية، أو معنى محدد يمكن التوصل إليه، نحو قوله عن مالقة : «إذ مالقة دار الملك في الروم، ومثوى المصاعب والقروم، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم، وذات ملك في الإسلام، خافق الأعلام، غني بالشهرة عن الإعلام»(96). وهذا كلام عام تشوبه المبالغات، وهو واسع غير محدد المعاني، قليل الضبط، فقد كنا ننتظر أن يقول لنا بماذا اشتهرت مالقة في تاريخها، وما أساس هذه الشهرة، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن(97).

وأختم القول بهذه الصورة الفنية البديعية التي رسمها لسان الدين بريشته، ولونها بأصباغه المكونة من حروف وكلمات، فهو يصف مالقة قائلاً: «كأنها لبست الصباح سربالاً، أو غاصت في نهر الفلق بهاء وجمالاً... مدينة حافلة، وعقيلة في حلى المحاسن رافلة»(98).

إنه في هذه الصورة البديعية يحشد طاقات اللغة وإمكاناتها، وبكلمات قليلة يقدم لما معان عميقة، عبر التركيز على عنصر الخيال، وما يثيره في النفس من كوامن ودوافع، تقود إلى تأمل الكون من حولنا ثم إعادة صياغة علاقاتنا به، وإعادة تحديد مشاعرنا تجاهه. كان بإمكانه أن يصف مالقة قائلاً: هي مدينة نظيفة حسنة البنيان، وهذا تقرير ومباشرة وسطحية، تجعل النص تاريخاً لا أدباً، أما ما عمد إليه لسان الدين، فهو التركيز على الصورة الحركية (لبست/ غاصت/ رافلة) والصورة البصرية والضوئية (الصباح/ الفلق/ بهاء/ جمالاً) واستثمار طاقات اللغة في تجسيد الصباح، وتشخيص مدينة مالقة، أو أنسنتها، ثم إضفاء صفة الأنوثة عليها، ثم تصويرها بالزوجة الحسناء، ثم تقديمها على أنها منعمة مرفهة مدللة ترفل في حليها وزينتها.

ولعل هذه اللمسات الفنية في رسالة المفاخرة بين «مالقة « و»سلا «، التي تمثل نموذجاً لنثر لسان الدين بن الخطيب، تؤكد رفعة بلاغته، وعلو كعبه، وأنه بحق رأس مدرسة في الكتابة، ليبقى النموذج الأخير الأول لإبداع العرب، وألمعيتهم، على أرض الأندلس المفقود.

خاتمة:

سعى هذا البحث إلى تقديم دراسة نقدية حول رسالة المفاخرة بين «مالقة » و «سلا »، للسان الدين بن الخطيب، فعرف بالكاتب من حيث اسمه ونسبه وأهم محطات حياته، التي بينت ارتحاله بين الأندلس والمغرب غير مرة، وما لذلك من أثر جوهري في إنشاء هذه الرسالة، كما عرف بثقافة هذا العلم الفذ، فهو أديب موسوعي الثقافة، متفنن ومؤلف في شتى الميادين والاختصاصات، وقد تجلت ثقافته الموسوعية تلك في رسالته هذه، من حيث الموضوع والأسلوب الفني.

في المبحث الأول، عالج الباحث بواعث كتابة الرسالة، فرجح بطلان ادعاء لسان الدين بأن صديقا له طلب منه كتابة هذه الرسالة، وبين أن الباعث الحقيقي يتمثل في إذكاء تلك الروح الأندلسية القائمة على منافسة المغرب والمشرق، فهي بمقدار ما ترفع من ذاتها، تحط من شأن غيرها، وفي هذا من التجني والإسفاف ما فيه، لذلك يقرر الباحث أن هذه الرسالة لا تصلح أساساً يعتمد عليه في الحكم على أفضلية هذه المدينة أو تلك.

وفي معرض الدراسة الموضوعية لنص الرسالة، قدم الباحث صورة كلية يندرج تحتها العديد من الصور الجزئية، فكان الناظم العام لمحاور المفاخرة يتلخص في مستويين اثنين، المستوى الطبيعي وما يتضمنه من مناخ وسهول وجبال وأودية ورمال وأمواه، والمستوى الحضاري وما يتضمنه من بناء وعمارة، وحصون وأسوار، ومنعة عسكرية ، ومآكل ومشارب، وغير ذلك، وفي كل من هذين المستويين نجد لسان الدين يقدم ذكر مالقة ويشيد بها، ثم يؤخر ذكر سلا ويذمها.

وفي المبحث الثاني، قدم الباحث دراسة فنية لهذه الرسالة، أوضحت أثر تلك الثقافة الشاملة التي تمتع بها لسان الدين، إذ تجلت في استعمال الموروث الديني من القران الكريم، والموروث الفكري من علم المنطق والفلسفة، والإشارات التاريخة التي يكثر منها سواء على مستوى الأعلام أو الأسر الحاكمة أو المصنفات الجامعة في بابها للكثير من محطات التاريخ.

ثم بين الباحث أهم السمات النثرية التي تبدت في هذه الرسالة، على مستوى الأسلوب المسجوع بأنواعه المختلفة، أو التطبيق أو التجنيس أو دلالة الألفاظ على المعاني، أو الصور الفنية الإبداعية، وفي هذا وذاك، سعى الباحث إلى تقويم الأخطاء العلمية في التحقيق الذي حصله، واعتمد عليه.

الهوامش:

1-انظر ترجمته في: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ت: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977، ج4 ، ص439-445. ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور ، الرباط ، 1974 ، ج1، ص308-312. العسقلاني شهاب الدين أحمد، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ت: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ج3، ص 469. محمد التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1954، ج1 ، ص 21-48. د. عبد الحليم الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، دار جرير، عمان ، ط1، 2006 ، ص11-39.

2- هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي النباهي، ولد سنة 713هـ، وهو من أصدقاء لسان الدين الذين انقلبوا عليه، وكان قاضياً للجماعة في غرطانة، ومن أعلامها المشهورين، له كتاب تاريخ قضاة الأندلس، توفي سنة 792هـ. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص88.

3- هو محمد بن يوسف الصريحي، يعرف بابن زمرك، ولد سنة 732هـ في غرناطة، نشأ شغوفاً بالعلم ، وكتب عن سلطان المغرب ومن ثم عن سلطان غرناطة محمد الخامس، وكان معدوداً من رجال حاشيته، وهو ممن تسبب في نكبة لسان الدين فتلقد خط الكتابة بعده، توفي سنة 795هـ. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 2 ، ص 30.

4- انظر الثبت في شيوخه وتلامذته: د. عبد الحليم الهروط، النثر الفني عند لسان الدين ابن الخطيب، ص26-28.

5- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج7، ص5.

6- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ت: محمد بن تاوت الطنجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص155.

7- أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1969، ج3، ص 225.

8- ذكر محمد التطاوي أن مؤلفات لسان الدين تربو على الثمانين مؤلفاً، في مختلف العلوم والفنون، انظر أسماء هذه المؤلفات: لسان الدين بن الخطيب، الإطاحة في أخبار غرناطة، ج 4 ، ص 443-445. محمد التطاوي، ابن الخطيب من خلال كتبه، ج 1 ، ص 62-65.

9- مالقة: اسم لمدينة وولاية على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق إسبانيا، وفي أيام لسان الدين كانت تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة في مملكة بني الأحمر. سلا: مدينة رومانية قديمة، تقع على ساحل المحيط الأطلنطي بأقصى المغرب، ويفصلها عن مدينة الرباط جنوبا نهر أبو الرقراق (بو رجراج)، وقد أقام لسان الدين فيها عندما نفي مع سلطانه محمد الخامس إلى المغرب، ثم عاد إلى موطنه الاندلس بعد ذلك، وفق ما أشرت إليه في المدخل من هذا البحث. د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية ، 1983، ص 57.

10- انظر إلى الأمثلة التاريخية على التأليف في المفاضلة بين البلدان: مقدمة كتاب «رسائل ونصوص فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم وابن سعيد والشقندي»، ت: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968، ص أ- ن.

11- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ت: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1981، ج2 ،ص355، ورد في النص المحقق (وفضلي) والصواب ما أثبته.

12- د. محمد مسعود جبران ، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الإسلامي، بيروت ، ط1،2004، ج1، ص518-519.

13- أشار د. محمد مسعود جبران إلى أن هذه المنظومة مخطوطة، وقد بحثت عنها فلم أجدها.

14- د. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، ج1 ،ص 519.

15- د. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2 ، 1986، ص575 – 576.

16- د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 11.

17- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2 ، ص 355.

18- د. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص 576.

19- انظر د. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، ج1، ص 522 – 523.

20- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2 ، ص 355.

21- ابن حزم وابن سعيد والشقندي، كتاب «رسائل ونصوص فضائل الأندلس وأهلها»، مقدمة المحقق.

22- المقبث: هو مكان المكث. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، مادة (قبث)، ج5، ص126.

23- أقوار مفردها قور بمعنى نطاق وسياج، انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص58 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

24- قهرات جمع قهرة وهي بمعنى قلعة أو برج القلعة، انظر: د. أحمد مختر العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 58 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

25- سمي أحد هذين الربضين باسم فنتالة وسمي الآخر باسم التيانين أو التيانيين نسبة إلى تجارة التين التي اشتهرت بها مالقة. انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 58 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

26 في النص المحقق (عقلية) والصواب ما أثبته.

27- لسان الدين بن الخطيب ، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 355 – 356.

28- في النص المحقق (ثور) ولا معنى لها هنا ، والصواب ما أثبته. وتعني السور والسياج. انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 58.

29-الأطم: الحصون. ابن منظور، لسان العرب، مادة (أطم)، ج1، ص 102.

30- قصد أنها مطمع عند الروم.

31- السلوقية: نوع من الخنادق أو الأبراج الأمامية التي في خارج الأسوار، انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 58 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

32- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعه المنتاب، ج2، ص356.

33- دمث الرمال: أي سهل الرمال. ابن منظور، لسان العرب، مادة (دمث)، ج2، ص 623.

34- القامرة: مخازن المحصولات الزراعية، والمقصود هنا التربة الخصبة المنتجة. انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص60 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

35- الصّداع: الأصيل، نقول بلغاء مصادع أي أصليين. ابن منظور، لسان العرب، مادة (صدع)، ج3، ص 326.

36-في النص المحقق (قافره) والصواب ماذكرته. فحص قامره: اسم مكان لا يزال موجودا حتى اليوم في ولاية مالقة بالقرب من بلدة انتقيره. انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص60 حاشيتها، نقلا عن مصادره.

37- في النص المحقق (مثحرات) والصواب ما ذكرته.

38- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص356.

39- في النص المحقق (الرجال) والصواب ما أثبته. انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص60.

40- شابل: نوع من الأسماك النهرية، انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص60 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

41- في النص المحقق (وكم الشوكة من شانصل) والصواب ما أثبته. انظر: د. أحمد مختار العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص60.

42- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، ج2 ،ص357.

43- نفسه،ج2، ص 358.

44- د. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، ج2، ص325.

45- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2 ،ص358.

46- نفسه.

47- القدح المعلي: السهم السابع في الميسر عند العرب في الجاهلية، وهو أكثر السهام ربحاً، والمعنى هنا مجازي للدلالة على علو شأن مالقة.

48- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 358.

49- قصد بـ (مصقر) آلة غزل الأقمشة القطنية، والمتاع المشدود هو: كل ما يشد به مثل العمائم والأحزمة. انظر: د. أحمد مختار العابدي ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب مشاهدات في بلاد المغرب والأندلس، ص59 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

50- في النص المحقق (صنعا) بضم الصاد، والصواب بفتحها، والمعنى أنه يشبهها بصنعاء اليمن التي كانت مشهورة بمنسوجاتها. د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب مشاهدات في بلاد المغرب والأندلس، ص59 حاشيتها.

51- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 356.

52- نفسه.

53- جنة السيد: يبدو أن هذا الاسم قد أطلق على قصر هناك لبعض أمراء الموحدين. انظر د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 63 حاشيتها، نقلا عن مصادره.

54- صلات جمع صلة ويقصد بها المعاجم والتراجم التي ظهرت مسلسلة تحت هذا الاسم كما هو واضح في المتن، د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب مشاهدات في بلاد المغرب والأندلس، ص63 حاشيتها.

55- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 358-359.

56- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 359، والكتب التي ذكرها على الترتيب هي: البيان المغرب لابن عذاري المراكشي. التاريخ الكبير لابن حيان وهو كتاب مفقود، وله أيضا المقتبس في تاريخ الأندلس. تاريخ الزمان، وهو كتاب غير معروف، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال، صلة الصلة للقاضي أحمد بن الزبير، وكتابه هذا ذيل لصلة ابن بشكوال. كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار، وهو تكملة للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس. تاريخ مالقة لابن عسكر. الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب. انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص 64- 65.

57- في النص المحقق (أصل مجادة) ولا معنى له، والصواب ما أثبته.

58- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 359.

59- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، ج1 ، ص 527.

60- القروم: مفردها قرم، وتعني الأبي السيد في قومه. ابن منظور، لسان العرب، مادة (قرم)، ج5، ص263.

61- يقصد الحموديون أو بني حمود وهم من سلالة الأدارسة. انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص61 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

62- هم بني زيري حكام غرناطة أيام ملوك الطوائف، وهم من أصل بربري يرجع إلى قبيلة صنهاجية. انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب مشاهدات في بلاد المغرب والأندلس، ص61 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

63- بنو نصر ويعرفون كذلك ببني الأحمر، وهم ملوك غرناطة آخر مملكة إسلامية في إسبانيا. انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص61 حاشيتها، نقلا عن مصادره.

64- في النص المحقق (المين) والصواب ما أثبته.

65- لم أهتد إلى المقصود من هذا التركيب.

66- في النص المحقق (اذخ) والصواب ما أثبته.

67- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2 ، ص357.

68- نفسه. ج2. ص 357.

69- نفسه. ج2. ص 358.

70- نفسه، ج2، ص359-360.

71- لسان الدين بن الخطيب، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ت: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 152.

72- د. عبد الحليم الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، ص95.

73- الحلبي شهاب الدين، حسن التوصل إلى صناعة الترسل، ت: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، 1980، ص76.

74- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2 ،ص 355.

75- سورة مريم، الآية 57.

76- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 355.

77- سورة الفاتحة، الآية 6.

78- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 358.

79- سورة الحاقة، الآيتان 22 -23.

80- انظر: أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملاين، بيروت، ط8، 1989، ص314-315.

81- يقصد الحموديون أو بني حمود، وهم من سلالة الأدارسة. انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص61 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

82- هم بنو زيري حكام غرناطة أيام ملوك الطوائف، وهم من أصل بربري، يرجع إلى قبيلة صنهاجة. أنظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص61 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

83- بنو نصر ويعرفون كذلك ببني الأحمر، وهم ملوك غرناطة، آخر مملكة إسلامية في إسبانيا . انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص61 حاشيتها، نقلاً عن مصادره.

84- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2 ،ص357.

85- نفسه، ج2، ص359. والكتب التي ذكرها على الترتيب هي: البيان المغرب

لابن عذاري المراكشي. التاريخ الكبير لابن حيان وهو كتاب مفقود، وله أيضا المقتبس في تاريخ الأندلس. تاريخ الزمان، وهو كتاب غير معروف. تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال. صلة الصلة للقاضي أحمد بن الزبير، وكتابه هذا ذيل لصلة ابن بشكوال. كتاب التكملة لكتاب الصله لابن الآبار، وهو تكملة للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس. تاريخ مالقة لابن عسكر. الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب. انظر: د. أحمد مختار العابدي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص64-65.

86- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص355.

87- د. عبد الحليم الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، ص 181.

88- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 360.

89- انظر: الحلبي شهاب الدين، حسن التوصل إلى صناعة الترا سل، ص 213.

90- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 357.

91- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ، ط2، 1973، ج1، ص 235.

92- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص358.

93- نفسه، ج2، ص 355.

94- نفسه، ج2، ص 355.

95- أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص 313.

96- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص357.

97- د.حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص 578-479.

98- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج2، ص 355-356.